حقبة الحروب الصليبية والوضع على طرفي المجابهة التاريخية

شمس الدين الكيلاني

لعل الحروب الصليبية، التي سمّاها مؤرخونا العرب بحروب الفرنجة لم تكن سوى رد الغرب على الفتح العربي ـ الإسلامي في القرن الثامن الميلادي الذي اخترق قلب أوروبا، وسيطر من خلاله المسلمون على شواطىء المتوسط. وهي بالمساحة التي أخذتها من التاريخ ستفتح المجال واسعاً للمجابهات التاريخية، والتبادلات والتأثيرات الكبرى بين الشرق والغرب.

فالحضارات كما يذهب بروديل «إنما تقوم على مزيجٍ من عدم الثقة والكراهية، مع التضحية والإشعاع، وتكديس للثروات الثقافية، وميراث للذكاء. فإذا كان البحر المتوسط مديناً بحروبه لهذه الحضارات؛ فإنه مَدينٌ لها أيضاً بمبادلاته العديدة وتقنياته وأفكاره وحتّى معتقداته»[1].

لعل الحقبة التي يؤرخ لها رسمياً بقرنين، تبدأ بسيطرة الفرنجة على القدس عام 1099م وتنتهي باسترجاع عكا، آخر معقل للفرنجة عام 1291م ـ تكشف من واقع نتائجها النهائية عن اختلالٍ لموازين القوى لصالح العرب على الصعيد العسكري، بالإضافة للمستويات الأخرى للحضارة. إلا أن التطور اللاحق على طرفي المتوسط سيذهب بمسارات التطور باتجاهات أخرى غير متوقعة. إذ منذ القرن الثالث عشر ستتبلور بذور النهضة في الغرب، إن على المستوى

---

(1) فرنان بروديل: البحر المتوسط، المجال والتاريخ. ترجمة يوسف شلب، وزارة الثقافة، دمشق، 1990، ص 131.

الثقافي، أو مستوى بناء الدولة، بينما سيستمر العرب في ظل العسكرتاريا المملوكية، وعندما يرث العثمانيون سلطتهم فلن يستطيع هؤلاء، على الرغم من تفوقهم العسكري، أن يبلوروا سلطةً، ومؤسسات سياسية، وقانونية، وشكلاً مناسباً للمشاركة الشعبية، أو أن يخلقوا إطاراً للتقدم الذهني والتقني ليجاروا ما كان يجري ببطء ولكنه مستمر على الجهة الأوروبية. وسيظهر التباين الحضاري لصالح الغرب جلياً في نهاية القرن الثامن عشر، مما سيقودنا إلى التمزق والاستتباع حيث مآله النهائي احتلال الأرض العربية، وكأننا أمام دورة جديدة من هجوم الفرنجة.

1 ـ أوضاعنا وأوضاعهم عشية الحملة الصليبية

بدأ الضعف والتدهور يصيب الدولة العباسية بعد المعتصم الذي دشّن عادة استبعاد العرب من «ديوان الجند»، إذ كان فيما يخص بناء الدولة الداخلي: استبعاد العرب من الجيش، الركود، والتزمت الفكري، أو ما أصابها من تفكك، وتقلص رقعة سيطرتها، مما أدى بالنهاية لوقوع الخلافة العباسية نفسها تحت الوصاية البويهية (945 ـ 1055). واستقل الأخشيديون في مصر والجزء الأكبر من بلاد الشام حتى طرابلس (935 ـ 969). واستقل الحمدانيون في شمال الشام والموصل، وتنازعوا ـ وهم العرب ـ مع البويهيين والأخشيديين والروم. ومع السيطرة الفاطمية على مصر وقسم من بلاد الشام على حساب الأخشيديين؛ انقسم العالم الإسلامي طوال قرنين (969 ـ 1171) بين خلافتين ومذهبين. ثم ما لبث الفاطميون أن بسطوا سطوتهم إلى دمشق وأزاحوا (أفتكين) المغامر التركي الذي ألحق نفسه بالبيزنطيين. ثم سيطروا على حلب (1015)، إلى أن استردها (صالح بن مرداس) الذي ظل ورثته يحكمونها من سنة 1023م لغاية 1079[1].

(1) راجع سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، الجزء الأول، طبعة أولى، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963، ص 63 ـ 70.

وبعد أن أهّلت ظروف القرن العاشر الميلادي للبيزنطيين لأن يكونوا في موقع الهجوم بالنسبة للعالم العربي ـ الإسلامي الممزق، ظهرت قوى الأتراك السلاجقة في الشرق فغيروا الوضع لصالح الشرق الإسلامي إلى حين.

استطاع السلاجقة وراثة الغزنوبين، واستولوا بقيادة طغرل بك على نيسابور (1038) وعلى أصبهان (1050)، ثم واتتهم الفرصة، عندما استنجد بهم الخليفة العباسي، لإنقاذه من الوصاية البويهية، فتحققت بتلبيتهم لهذا النداء وحدة المسلمين في إيران والعراق تحت ظل الخلافة العباسية، والسلطنة السلجوقية «التي تجاهر برغبتها في أن تعيد إلى الإسلام تالد مجده»[1].

وتبدل الموقف للمسلمين ـ كما يقول رنسيمان ـ في الوقت الذي بدأ فيه الضعف والركود يعتري بيزنطة في القرن الحادي عشر. فأوغل السلاجقة في الأراضي البيزنطية حتى ملازكرد (مانزكرت) التي تُعتبر معركةً فاصلةً في التاريخ حيث انهزم البيزنطيون أمام ألب أرسلان /1070م/ وهي «أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث حاسمة»[2]. ولم تقم للروم مذ ذاك قائمة، وبعدها لم ينفك أباطرة بيزنطة يوفدون البعثات إلى الغرب يرجون الدعوة للحروب المقدسة.

ويبدو أن ملكشاه (1072 ـ 1092) الذي خلف ألب أرسلان واتته فكرة إقامة خلافة عباسية تستند على العنصر التركي، فزوّج ابنته للخليفة المقتدي فأنجب هذا الزواج طفلاً (جعفر) يحمل الدم العربي والتركي، إلا أن اغتيال الوزير الكبير /نظام الملك/ الذي يحمل نفس الفكرة، ثم موت ملكشاه عام /1092/[3] قضى على هذا المشروع، بل دفع إلى انهيار وتفكك الدولة ـ الامبراطورية السلجوقية.

---

(1) أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب. ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الفارابي. بيروت، طبعة ثانية، 1993، ص 27.

(2) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، السيد الباز العريني: دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الأول، ص 100.

(3) راجع سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، مرجع سابق، ص 109.

فلم تحلّ سنة 1096 عشية الحملة الصليبية الأولى، إلاّ وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة، سلطة بركياروق على أصبهان وبغداد، وأبو الحارث سنجر على خراسان وما وراء النهر، ومملكة حلب عليها رضوان بن تتش (1095 ـ 1113) ودمشق وعليها أخوه دقاق بن تُتُش (1095 ـ 1104)[1] وأخيراً سلطنة سلاجقة الروم وعليها قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش. بالإضافة إلى ذلك فإن دانشمند التركماني حقق استقلالاً ذاتياً، والتركي (ياغي سيان) على أنطاكية، وعلى الموصل الأتابك كربوغا. بل وصل هذا التمزق والشقاق إلى الحد الذي عرض فيه الفاطميون على الفرنجة، عشية الحروب الصليبية أن يغنم الفرنجة شمال الشام، على أن يأخذوا هم فلسطين[2].

وهكذا، فحينما كان البابا أوربان الثاني يدعو إلى الحملة الصليبية كان الخطر الإسلامي في آسيا، شأنه شأن الخطر الإسلامي في إيطاليا وأسبانيا من قبل ـ كما يشير إلى ذلك كاهن ـ كان في طريقه إلى الزوال[3].

لذا يصح ما قاله ابن الأثير /اختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد/.

إلا أن هذا التمزق السياسي في حدوده القصوى، لم يخفِ الطابع المتحضر للمجتمع الأهلي في بلاد الشام وما بين النهرين ومصر. فالحياة المدينية كانت ما تزال عامرةً رغم ما أصابها، والحياة الزراعية مزدهرة، والحياة الثقافية غنية رغم هذا التشتت المبين وانقياد المجتمعات العربية لعساكر غرباء، وانتشار الإقطاع العسكري، والرق المنزلي والحرفي، وزيادة دور البداوة. في هذا الوقت (القرن الحادي عشر) كانت أوروبا «ما تزال منطقةً جغرافية لم تتشكل بعد

(1) راجع عن الخلاف بين رضوان ودقاق عند سهيل زكار: مدخل إلى الحروب الصليبية، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت 1972، ص 233 ـ 234. وراجع أمين معلوف: الحروب الصليبية، ص 43.

(2) راجع ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص 100.

(3) راجع كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، ط. سينا للنشر، القاهرة، طبعة أولى 1995، ص 86.

على المستوى السياسي، كما أنها كانت مجرد منطقة ريفية متخلفة بالقياس إلى كل من العالم البيزنطي والعالم العربي»[1].

حتى قبل أن تسقط روما في القرن الخامس الميلادي في البرابرة، فإن الغرب بكامله، إذا وضعنا خارجاً شمال أوروبا الذي لم تصله المدنيةُ بعد، رزح تحت ركود شامل نال من حياته الروحية والمادية، ولم يستطع استدراك هذا التأخر، على الرغم من جهود الامبراطورية الميروفنجية (481 ـ 716م) الذين أعلنوا ولاءهم لبيزنطة، والجهود اللاحقة للامبراطورية الكارولنجية، الذين توج البابا ليو الثالث زعيمهم الأكبر شارلمان (800م) امبراطوراً (للامبراطورية الرومانية المقدسة)، محيياً بذلك ذكرى الامبراطورية القديمة؛ مدخلاً بذلك فرنسا، وقسماً من أسبانيا، وإيطاليا في دائرة السلطة الامبراطورية مع السلطة الروحية لكنيسة روما. ولكن، ومع موت شارلمان سيغدو التاج الامبراطوري بلا معنى: يتقاسم أولاده الثلاثة السلطة، وعلى أجزائها الثلاث ستقوم الممالك الأوروبية الحديثة، فيما بعد[2].

وسرعان ما انتزع العرب ـ المسلمون غرب المتوسط بكامله، واندفع النورمانديون من الشمال، والمجريون من الشرق، فضلاً عن الصقالبة على التخوم الشرقية.

إن ظهور الهنغاريين، والاضطراب في ألمانيا، وإيطاليا واللورين وبورغونديا والشمبانيا، واستقرار النورمانديين في فرنسا (911م) وانكلترا، قبل دخولهم إيطاليا الجنوبية على حساب المسلمين، يضاف إليها آلام الحروب الأهلية، والسلالية سيدفع بالغرب نحو التدهور. وإذا كان صعود أوتو الأكبر (936م) وريث الامبراطورية الرومانية المقدسة قد خفَّف من هذه الفوضى الهائلة في ألمانيا،

(1) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 149، 1990، ص 58.

(2) هـ.أ.ل. فشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ت. محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، دار المعارف بمصر، طبعة رابعة، 1966، ص 95.

ففي فرنسا وإيطاليا ظل الخطر والخوف يلف الطرقات الكبرى. إذ تقلصت الحياة إلى الحدود الداخلية للإقطاعية الريفية، وتمركزت حول مسكن الأمير والدير[1] وتراجعت التجارة، إذ أصبح الاستهلاك والإنتاج محليين، يحققان بالكاد الكفاية الدنيا للعيش. وتوسعت الأراضي البور حتى غطت الغابات ثلثي غاليا، وكل ألمانيا الوسطى، والسهول المنخفضة. ومن الطبيعي أن يترافق هذا البؤس الشامل مع انتشار الأوبئة القاتلة، والاضطرابات، ناهيك عن انخفاض الحياة الأخلاقية والدينية التي جنحت نحو الخرافة. وفي وضع كهذا يصبح الحديث عن الحياة الفكرية ضرباً من الخيال؛ إذ صارت الثقافة قاصرةً على ثقافة الأديرة.

كانت أوروبا في حالة بؤسٍ حضاري شامل، بالمقارنة مع الشرق المسلم، لكنها وجدت ما يجمعها في القرن الحادي عشر الميلادي حول هدف واحد: غزو الشرق، وتحرير القدس. واستطاعت أن تؤلّف ما بين مصالحها المتنابذة إلى حد كبير في ظل المعركة الكبرى تلك. لم يمنع الجفاء بين الأمبراطور هنري الرابع والبابا من مساهمة ألمانيا، وكان هناك ريانيون وأنجليز وإيطاليون، وإن كانت الغلبة فيهم للفرنسيين، وقاد النورمانديين بوهمند الترانتي تحدوهم الأحلام الغابرة التي لم تكن لها بالقدس ـ كما يقول كاهن ـ إلاّ صلة واهية. أما البندقية وجنوه وبيزا، التي ما كانت الحرب لتنجح لولا مساهماتها البحرية، فقد كان يتنازعها جميعاً الطمع للحصول على كنوز الشرق، وعلى موانىء الشرق اللازمة لتجارتهم البحرية[2]. وأهم ما كان يشغل بال البيزنطيين هو استرجاعهم ما فقدوه عند السلاجقة، وعندما اختلفت خططهم حول أنطاكية، توقفوا عن المشاركة المباشرة[3]. ودخلت الجماهير البائسة تحت

(1) راجع نور الدين حاطوم: تاريخ العصور الوسطى، دار الفكر الحديث، لبنان، الجزء الأول، طبعة أولى 1967، ص 858 ـ 859.

(2) راجع كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص 94 ـ 95.

(3) يقول جوزيف نسيم يوسف: «أما البيزنطيون فلم يكونوا يهدفون إلى غزو أورشليم وتخليص كنيسة القيامة، بقدر ما كانوا يهدفون إلى استرداد الأملاك التي اقتطعها من دولتهم السلاجقة. =

راية الصليب لنيل الجنة السماوية والغفران، وتخلصاً من بؤسهم الأرضي وطلباً للجنة الأرضية الموعودة في خيرات الشرق الخرافية التي حلموا بها.

ربط ابن كثير بنباهة بين الحملات الصليبية في الشرق، وحملاتهم على الأندلس، وكأن ما يجري في الأندلس ما هو سوى مدخل لحروبهم في الشرق. فسقوط طليطلة (1085م) ما كان يفصله سوى عشرة سنوات عن إعلان البابا أوربان الثاني رسمياً بدء الحروب الصليبية (1095م). وقد أسهم الصليبيون الوافدون من انكلترا وألمانيا في استرداد لشبونة[1]. وكان ميدان المعركة يشمل المغرب والمشرق العربي، وأصبح الصراع شاملاً بين حضارتين[2]. ولعل التفكير بحرب صليبية شاملة تبدأ من الأندلس وصقلية وتنتهي بالقدس نضجت كفكرة منذ البابا غريغوري السابع. وتسلم البابا أوربان الثاني (1088) من بعده، زمام المبادرة. فذهب باتجاه تنفيذ مخطط شامل للانقضاض على الشرق العربي تصبح فيه «مسألة إنشاء دولة لاتينية في سورية وفلسطين.. من شأنها تأسيس قاعدة نفوذ لاتينية رومانية في المشرق.. وما كان قد بدأ إنجازه في صقلية وأسبانيا لزم أن يشمل فلسطين»[3].

وقد واتت الفرصة متنفذي الغرب، وفي مقدمتهم البابا بعد خسارة بيزنطة في معركة مانزكرت التاريخية، ، ليرفعوا شعار نجدة بيزنطة والاستيلاء على بيت

= وخصوصاً أنطاكية»؛ العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، الطبعة الثانية، بدون تاريخ، ص 75.

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، مصدر سابق، ص 75.

(2) فقد تراءى لأوروبا ـ كما يقول رنسيمان: «أن الإمارات الصليبية بالشام لم تقم، فيما يبدو، إلا لتؤلف الجناح الأيسر لحملة صليبية لقتال المسلمين على امتداد البحر المتوسط. أما الجناح الأيمن فكان أسبانيا»؛ تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص 68. راجع أيضاً مخائيل زابروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم، موسكو 1986، ص 26. حيث يقول: «كانت حروب الفرسان الفرنسيين في أسبانيا حروباً صليبية قبل الحروب الصليبية من حيث الشعارات ومن حيث الألبسة والرايات ومن حيث المضمون».

(3) كلود كاهن، الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص 82.

المقدس آملين السيطرة على المشرق العربي، وإرجاع بيزنطة وكنيستها إلى حظيرة روما وهي التي انفصلت عنها كنسياً عام 1054م.

2 ـ الحرب والسلاح

تقدمت الجحافل الاقطاعية الأوروبية الضخمة باتجاه القسطنطينية 1096م في أربعة جيوش، وبعد عبورهم البوسفور استولوا مع البيزنطيين على /نيقية/ عاصمة السلاجقة، فأعادوا إلى بيزنطة شواطىء آسيا الصغرى، ثم اخترقوا الطريق إلى /قونية/ وأنطاكية التي استولوا عليها بعد حصار مديد ومقاومة بطولية.

بعد المذبحة المروعة التي أقاموها في أنطاكية، أكملوا مشوارهم الدامي نفسه في /الرها/، وختموه في القدس (1099). «احتفلوا بانتصارهم بارتكاب مجزرة تعز على الوصف ثم ضربوا بوحشيةٍ المدينة التي يزعمون إجلالها»[1]، وطردوا منها جميع كهنة الطقس الشرقي، بعد أن أخضعوهم للتعذيب للحصول على صليب الصلبوت. وبعد أشهر من الحصار، دخلوا طرابلس (1109م) خاب خلالها أمل المدينة الباسلة في نجدة الأشقاء، فخرب الغزاة مدينة المصوغات والمكتبات والبحارة البواسل والقضاة والمثقفين وأتلفوا مئة ألف مجلد كانت في دار العلم، ومعظم الأهالي بيعوا أو أبيدوا. أعقبوها بمذبحة ببيروت وصيدا على سبيل العبرة[2].

وانتصر الغرب لوحدته العسكرية ـ السياسية، في المرحلة الأولى على الرغم من تخلفه الحضاري على «الشرق بمدنه التجارية الكبيرة والمتطورة في الميدان الاقتصادي أكثر من الغرب، القروي أساساً»[3].

---

(1) أمين معلوف.. الحروب الصليبية.. مصدر سابق، ص 78.

(2) المصدر السابق، ص 112 ـ 113. راجع أيضاً كلود كاهن، ص 112.

(3) ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، مصدر سابق، ص 38. راجع أيضاً عن تفوق العرب الحضاري. ج.ل. أبو لغد: النظام العالمي في القرن الثالث عشر، الاجتهاد، العدد السادس والعشرون والسابع والعشرون، السنة السابعة، بيروت، ص 224.

لن يستقر الصليبيون كثيراً في المستعمرات الأربع التي تقاسموها فيما بينهم: الرها، وأنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس. سرعان ما يستفيق العرب من هول الكارثة، عندها ستصبح صرخة قاضيي دمشق وحلب بمثابة صوت الأمة، وستغدو راية الجهاد مشروعاً سياسياً لها يقوده السلاجقة والأيوبيون والمماليك. سيتصدر الأتابك عماد الدين الزنكي طريق الجهاد والوحدة، على الرغم من دوره في إفساد خطط الخليفة (المسترشد بن المستظهر) في تجديد الخلافة وتحسين دور العرب في إدارتها. وانطلاقاً من /1140م/ تقريباً سيعطي الزنكي السلطة الوزارية لقادة عسكريين عرب وأكراد، وبعد ضمه حلب عام /1128م/ إلى الموصل وتوحيده شمال سوريا سيقود المسلمين إلى الاستيلاء على الرها /1144م/ تلك المدينة التي تتحكم بعقدة مواصلات حلب ـ الموصل بغداد ـ سلاجقة الروم، وسيحفظ للأرمن والسريان كنائسهم في حين سيدمر كنائس الصليبيين الكاثوليك[1]. وتوافقاً مع هذه الفترة نفسها يبادر الموحدون في توحيد المغرب العربي لمواجهة المخاطر التي تحيق بالأندلس، ولتجاوزات النورمانديين مما جعل الوضع بكامله يتحول بمساره العام لصالح العرب. ولن يجني الغرب من حملتهم الثانية بقيادة /لويس السابع وكونراد الثالث/ الذين حاولوا الرد بها على هزيمة الرها، سوى الفشل على أبواب دمشق، بل ستسرِّع هذه الحملة من إنجاز وحدة سوريا بانضمام دمشق إليها /1154م/ في عهد نور الدين بن عماد الدين زنكي وخليفته.

وتركزت جهود نور الدين زنكي بعد ذلك على ضم /مصر/ للجهود العربية الإسلامية لاقتلاع العدوان (الصليبي) واسترجاع بيت المقدس. وقد واتته الفرصة مع انتشار الفوضى الشاملة وانتشار الخلافات في قمة السلطة الفاطمية إلى الدرجة التي يطلب فيها الوزير شاور/ المساعدة من الفرنجة ـ وهي على كل حال ليست المرة الأولى ـ وسيطلب الخليفة الفاطمي بدوره النجدة من نور الدين الذي سيسارع من فوره إلى إرسال شركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر. سيتم القضاء على شاور، وعلى الخطر الفرنجي، وتعاد مصر رسمياً إلى طاعة

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، الجزء الثاني، طبعة أولى، 1963، ص 607.

الخلافة العباسية عام 1171، ومن تلك اللحظة التي دخلت فيها مصر قلب الجبهة المشتركة للحرب المقدسة ضد الفرنجة يكون الباب قد فتح لتحرير القدس.

صلاح الدين الذي خلف عمه شركوه في مصر سيضم الشام إلى مصر بعد أن آل الأمر إليه بوفاة قائده نور الدين /1174م/ وصار الخطر شاملاً ضد الفرنجة. فبعد انتصاره في حطين سيخوض معركته الحاسمة لتحرير القدس، سيدخلها /1187م/ مقتدياً بنبل وأخلاقية عمر في تعامله مع المستسلمين الفرنجة. بعدها سينحصر الوجود الفرنجي على شريط ساحلي ضيق. لن تفلح الحملات الصليبية المتتالية في تغيير المآل النهائي للاحتلال، الذي سينتهي بالكامل مع تحرير /عكا/ آخر معقل للفرنجة /1192م/ في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون. وسيخلِّف ذلك العدوان وراءه في الوجدان العربي ذكرى قاتمة مريرة.

بعد أن كانت الأمة الإسلامية كلها نظرياً تحت السلاح ستتبدل القاعدة تلك في القرن التاسع الميلادي مع ظهور الإقطاع العسكري، لتصبح نواة الجيش تلك القوى المؤلفة أساساً من العبيد والتابعة للقادة والأمراء[1]، وفي مقابل احتفاظه بإيرادات أقليمه المقتطع، يلتزم الإقطاعي السلجوقي بالخدمة العسكرية عند الحاجة[2]. وعلى خلاف النظام الإقطاعي الغربي الذي حمله الصليبيون معهم حيث كانت الوظيفة العسكرية وراثية، فإنه كان عندنا يتحاشى توريث الخدمة إلى الأبناء، حرصاً على عدم الاندماج بالسكان، وللإبقاء على التمايز العرقي للجيش الذي سيتجدد باستمرار من المرتزقة أو العبيد[3].

لكن في غمرة الحرب المقدسة، وفي ذروة الإحساس بالخطر أو بنشوة

(1) راجع علي السيد علي محمود: ملامح الجانب العربي الإسلامي في المواجهة ضد الغزو الصليبي، المستقبل العربي، عدد 102. السنة العاشرة، الشهر الثامن، 1987، ص 42.

(2) راجع أحمد رمضان أحمد محمد: الصراع المسلح الإسلامي في العصور الوسطى، المصدر السابق، ص 67.

(3) كلود كاهن: الشرق والغرب.. مصدر سابق. ص 205.

النصر، سيتولد تقارب مع السكان المحليين، وسيُفتح لهم باب التجنيد، مع الحرص على إبقائهم ضمن فرق خاصة للمتطوعين، موازية للفرق النظامية المحترفة، وبدون رواتب منتظمة[1].

بالمقابل سينشىء الغرب مليشيتين كهنوتيتين: الداوية، والاسبتارية لرفد الفرنجة الغزاة، سيقوى نفوذهما داخل المستعمرات لتصبحا بمثابة دولة داخل دولة.

ويجتمع المسلمون والفرنجة على إعطاء الأولوية للخيالة. ويتميز الفارس الغربي بثقل السلاح الذي يحمله بالمقارنة مع الفارس المسلم. فالأول يحمل درعاً ثقيلةً ويمتشق سيفه الثقيل ذا الحدين والرمح الثقيل وقلنسوة فولاذية وترساً وهذا مما يؤثر على حركته، بينما اعتاد الخيال المسلم على الكر والفر تساعده في ذلك خفته. وما يميز حرب السلاجقة هو تكتيكات الرماة والفرسان السريعة والمرنة والمراوغة. وسرعة عدو خيولهم ورشاقة وخفة أسلحتهم: الترس والرمح والسيف والهراوة، مما يجعلهم يتمتعون بسرعة المباغتة أكثر من الصليبيين[2].

مع اختراع وإتقان السرج والشكيمة والركاب، في العصور الوسطى، سيصبح للفروسية تكلفتها التي ستصبح بها حكراً على الأرستقراطية. لهذا يعزو لها كلود كاهن دوراً في ظهور نظام الإقطاع في الغرب، وإن لم تعط نفس النتائج التي أعطتها في الشرق.

ولم تتغير التقنيات العسكرية لدى الجانبين، الفرنجة، والمسلمين طوال حقبة النزاع المرير. فكلا الطرفين سيعرف استعمال النار الإغريقية البترولية. وسيقتبس الغرب من العرب استعمال الحمام الزاجل في الاتصالات.

وستكون المستوطنات الصليبية أهم ركائز النظام الدفاعي، وهم الذين

---

(1) المصدر السابق، ص 121.

(2) أحمد رمضان أحمد محمد: حول مسائل الصراع المسلح.. مصدر سابق، ص 71.

يشعرون بالخطر الدائم ضمن رقعتهم الضيقة، التحصينات والقلاع والأبراج[1].

وفي هذه الأوضاع من توازن التقنية العسكرية ستصبح الروح الكفاحية وكثافة الحشد والمستوى الحضاري هي العوامل الحاسمة.

3 ـ بحر وتجارة

يعتقد بروديل بحق، أنه خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، سيطر الإسلام في عِزِّ ألَقِ حضارته على البحر المتوسط، وكانت المسيحية على حد تعبيره «لا تكاد أن تعوِّم فيه قطعة خشب»[2]. ويلاحظ تبدل الأحوال منذ القرن الحادي عشر الميلادي، إذ غدت المراكب الإيطالية سيدة البحر المتوسط.. وأصبحت إيطاليا المنطقة الأكثر نشاطاً والأكثر ثراء[3].

يُرجع البعض اختفاء البحرية الإسلامية إلى نقص التموين بالخشب إلا أن كلود كاهن يُعيد الأمر إلى الانشقاق الحاصل بين مصر الفاطمية والمغاربة وبين المغاربة أنفسهم، بالإضافة إلى ما صاحب ذلك من ازدهار للأساطيل الإيطالية، إلى الدرجة التي أضحت فيه العلاقات بين الدول الإسلامية تعتمد عليها[4]. وقد وصل الأمر بالمدن البحرية الإيطالية في القرن الثاني عشر الميلادي إلى السيطرة المطلقة على تجارة الشرق والغرب، واضطر مسلمو الغرب إلى استعارة مراكبهم للرحلة إلى الشرق. وإن كنا نجد في بداية القرن الثالث عشر الميلادي بعض عناصر الأسطول الإسلامي على امتداد سواحل المغرب العربي. وسيؤسس صلاح الدين الأيوبي وبعده المماليك أساطيل بحرية[5]. بعد ذلك، في القرن السادس عشر، سيأتي تنامي دور الأساطيل العثمانية.

---

(1) قاسم عبده قاسم: الحروب الصليبية في الأدبيات العربية والأوروبية واليهودية، المستقبل العربي، المصدر السابق، ص 11.

(2) فرنان بروديل: البحر المتوسط، المجال والتاريخ، مصدر سابق، ص 134.

(3) المصدر السابق، ص 134.

(4) كلود كاهن: الشرق والغرب.. المصدر السابق، ص 176.

(5) المصدر السابق، ص 176.

إعتقد البعض مثل د. حاطوم أن سيطرة العرب على المتوسط قطع من سريان التبادلات التجارية بين الشرق والغرب المسيحي، مما دفع إلى إضعاف الحياة المدينية في أوروبا[1]. بالمقابل، فكلود كاهن يذهب إلى أن الاتصالات وإن لم تتم بين العالمين بشكل مباشر حتى القرن العاشر ميلادي فهذا لم يمنع من أن يلعب اليهود والمسلمون المنتمون إلى غرب المتوسط دوراً تجارياً، وإن ظلت سبل الاتصال محصورة، إلى حين، في مناطق معينة، مثل البندقية وشمال إفريقيا وأسبانيا وما يجاورها، وبيزنطة وجوارها[2].

سيتغير الوضع منذ القرن الحادي عشر الميلادي، ونهاية القرن العاشر. توقفت حينها الغارات والفوضى من الجانب الأوروبي، وأصبح بإمكان الناس استئناف حياتهم الطبيعية. وصارت السفن التجارية البيزنطية والإيطالية تبحر بحرية بين مرافىء بيزنطة وإيطاليا وعند السلطات الإسلامية[3]. ومن الجانب الإسلامي، وبعد استيلاء الفاطميين على (مصر)، لم يكن بمقدورهم الاعتماد على خشب وحديد المشرق الشامي، ولا على الوساطة التجارية المغاربية. فمدوا اليد للبيوتات التجارية الإيطالية واجتذبوهم نحو الشرق «فكان الأمالفيون يربحون أموالاً طائلة من الاتجار في المواد التي في إمكانهم جلبها من مصر»[4].

وكانت أهم السلع التي يصدرها البنادقة في السنوات الأولى من القرن العاشر هي الرقيق.. كما تعتبر «المعادن والأخشاب أهم السلع التي يصدرها الغرب»[5]. وعندما فقدت أوروبا تجارة العبيد لاعتناق الشعوب السلافية المسيحية «لم يكن في

(1) نور الدين حاطوم: تاريخ العصور الوسطى.. مصدر سابق، ص 36.
(2) كلود كاهن: الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص 59.
(3) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص 71.
(4) كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 60. راجع أيضاً عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص 189، حيث يرجع العلاقة بين مصر والبندقية إلى القرن التاسع.
(5) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص 608.

إمكان أوروبا أن تعوضه اقتصادياً، إلا بتصديرها سلعاً غذائية»[1]. والوثائق تتحدث ـ كما يقول كاهن ـ «عن الخشب والحديد بالنسبة للاستيراد، وأحجار الشب، والمواد الاستهلاكية المتنوعة للتصدير»[2]. وكان هناك معبران للتجارة الآسيوية ـ الأوروبية عبر فلسطين ثم بغداد، فالخليج العربي ثم آسيا، وطريق أخرى تمر بالإسكندرية نحو البحر الأحمر ثم البحر العربي فالمحيط الهندي إلى آسيا. فكان التجار الإيطاليون «يحملون معظم متاجر بلدان البحر المتوسط وسلعها، مثل المنسوجات الصوفية من إيطاليا، والشب من مصر، والذهب والفضة من شمال إفريقيا، والسجاد من فارس، فضلاً عن متاجر الشرق الأقصى، كالحرير الصيني، والتوابل الهندية. واشتروا من أسواق شامبيني الأقمشة والمنسوجات الفرنسية والفلمنكية الصادرات الرئيسية للغرب الأوروبي إلى بلدان شرق البحر المتوسط»[3]. فالخلافات السياسية والعقائدية لم تحل دون تدفق السلع بين طرفي المتوسط. فالنورمانديون حرصوا، بعد استيلائهم على صقلية في القرن الحادي عشر ميلادي، على استمرار صلاتهم التجارية مع مصر. ولم تكن سياسة التوسع التجاري التي اتبعتها (أمالفي) مع الشرق المسلم سوى امتداد لسياستها السابقة مع صقلية المسلمة. وسنجد الكثير من تجار جنوه في مصر عشية الحملة الصليبية الأولى[4].

وإذا أردنا تحديد اتجاه الميزان التجاري فإننا نقول مع الدكتور قاسم عبده قاسم: «إنه حتى بداية الحروب الصليبية، كانت التجارة بين الشرق وأوروبا تسير في اتجاه واحد تقريباً لصالح الشرق»[5].

إن مجرد إقامة الصليبيين بالمشرق العربي لم يكن قادراً على قلب الأوضاع

---

(1) كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 61.

(2) المصدر السابق، ص 170.

(3) عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، مصدر سابق 43 ـ 44. وراجع أيضاً كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 61 ـ 62.

(4) راجع كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 63.

(5) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص 216.

التجارية تلك. وكان التفاوض بشأن البضائع التي تهم التجار الغربيين في الشرق يتم دائماً في مصر بصورة رئيسية[1].

فإن علمنا ـ كما يخبرنا (رنسيمان) ـ أن رخاء المدن الإيطالية: البندقية، بيزا، جنوه، أمالفي، بأكمله، يتوقف على العلاقات الطيبة مع المسلمين. نستطيع، حينئذ، أن نتصور كيف أن تلك المدن مع مساهمتها في الحملة الصليبية حرصت، ومعها الفاطميين، على استمرار تدفق التجارة. فتجارة الشرق الأقصى التي تمر بمصر تحتاج إلى الطليان لنقلها إلى الغرب، كما أن هذه المواد نفسها، والاستقرار والاطمئنان الذي يجده الطليان في مصر الفاطمية، كل هذا موات لتجارتهم. ولعل التجارة مع أقاصي الشرق (الأفاويه) والتي وجدت قبل الحروب الصليبية، وموجهة نحو اليمن والبحر الأحمر، غدت بعدها مرتبطة بمقدار الأمان المتوفر لميناء (عيذاب) في جنوب مصر[2]. ولقد ساهم تدهور خط التجارة المار بالخليج العربي، نتيجة الاحتلال (الصليبي) لموانىء بلاد الشام في البداية، وتوقف عمليات التموين المباشرة للقسطنطينية من المنتجات الآسيوية للسيطرة التركية على آسيا الصغرى، ساهم هذان الحدثان في تقوية الاعتماد على الخط التجاري المار بالبحر الأحمر عبر مصر إلى الغرب «فظلت تجارة الشرق الأقصى تنقلها حتى وقتذاك السفن التي تجتاز طريق البحر الأحمر، ثم تصل المتوسط عن طريق الموانىء المصرية... بالإضافة لذلك، فقد اشتهرت القاهرة والإسكندرية بأنها من المراكز الكبيرة في إنتاج الزجاج والفخار والأواني المعدنية، فضلاً عن المنسوجات الكتانية، والمزركش.. والقمح.. وقصب السكر. كما تسيطر مصر على تجارة السودان من الذهب والصمغ وريش النعام والعاج»[3].

أما المشرق الشامي فقد تأثرت علاقاته التجارية بالغرب المارة أساساً عبر

(1) كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 141.

(2) المصدر السابق.

(3) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جزء أول، مصدر سابق، ص 29.

الشريط الساحلي، الذي أصبح تحت سيطرة المستوطنات الفرنجية؛ لكنّ المصالح تركت فسحةً للحياة التجارية بين الأطراف المتنازعة، لذا «ليس من المستغرب أن تزدهر التجارة الداخلية في عصر الحروب الصليبية، لحرص كل من المسلمين والصليبيين على المواد التي توفرها لهم عائدات التجارة»[1]. وسيندهش (ابن جبير) في رحلته الشامية 1183م لرؤيته القوافل تذهب وتجيء بيسر بين مصر، ودمشق عبر بلاد الفرنج... وأن للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم.. وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم.. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم[2]. لقد حصل تجار جنوه وبيزا والبندقية على جملة من الامتيازات التجارية على الموانىء التي يسيطر عليها (الصليبيون) الذين أدركوا بدورهم أهمية وضع صيغة للتعايش السلمي والانتفاع من جباية المكوس[3].

صدَّر (الصليبيون) من مستوطناتهم، ولو بكميات قليلة، السكر، بعد أن تعلموا استخراجه من قصب السكر، فصار ما كان يستهلك من السكر في أوروبا الغربية في القرن الثاني عشر والثالث عشر من المستعمرات الصليبية. وصدروا الأقمشة: الحرير، والكتان من نابلس، والزجاج من أنطاكية، حيث كان ينافس الزجاج المصري[4].

وقد لعب التجار المسلمون الشاميون والمصريون، والمسيحيون، دوراً في نقل البضائع إلى الطليان ومنهم إلى أوروبا. وفي المدن الصليبية كانت هناك علاقات طيبة بين التجار المسلمين والمسيحيين. ونقل التجار الطليان، عبر المدن الصليبية، تجارة الشرق الأقصى: «توابل الهند بأنواعها، مثل القرفة، والفلفل، والزنجبيل والهال، وجوز الطيب. كذلك الحرير والخزف من الصين، والأحجار الكريمة مثل اللؤلؤ والياقوت والماس من جزيرة سيلان،

(1) د. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية. مصدر سابق، ص 218.
(2) أمين معلوف: الحروب الصليبية.. مصدر سابق، ص 233.
(3) كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 141.
(4) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص 602 ـ 606.

والسجاجيد من فارس وآسيا الصغرى، والنيلة والموسلين من العراق»[1].

عرف الجانب الإيطالي، في خضم الصراع، كيف يطوع تشدده الديني لمصالحه الاقتصادية. ففي نهاية القرن الثاني عشر قدمت البندقية يد العون للصليبيين ضد صلاح الدين، ونقلت السلع. حتى الأسلحة إلى المسلمين في مصر والشام[2]. وبيزا التي قدمت للفاطميين والفرنجة المساعدة ضد صلاح الدين، لن تجد حرجاً في تقديم اليد نفسها للأيوبيين بعد انتصارهم، مثلما جرى مع البندقية[3].

من هنا، لم تتوقف التجارة بين الغرب والعرب عبر المدن الإيطالية ولا بين الغرب والشرق الأقصى عبر الأرض العربية. «فمن البندقية وجنوه، وبيزا، ومرسيليا، وموبيليه، ومن سواحل بريطانية المضيئة ـ كما يقول زابوروف ـ وبرشلونة المشمسة، كانت الأساطيل تنقل إلى الشرق حاملةً خشب البناء والمعادن والجلود والجوخ من فرنسا، والخيول والعبيد.. وتنقل إلى أوروبا البضائع المشتراة من مدن الشرق البحرية.. وكانوا ينقلون الأقشمة الحريرية، والفضة من صنع الحرفيين السوريين، والفواكه.. وجوز الطيب، وقصب السكر. والقطن والمسك من التبت، والزجاج المصري، والمصوغات الزجاجية والأصباغ والتوابل من الهند، والصمغ والبخور والعنبر من الجزيرة العربية، واللؤلؤ والحجارة الكريمة، والعاج من بلدان إفريقيا لتصريفه في أوروبا»[4].

طوال هذه الحقبة، كان الميزان التجاري يميل دائماً لصالح الشرق العربي ـ الإسلامي. فالشرق كان يبيع بضائع غالية بينما لا يجد الغرب البضائع التي توازيها في القيمة. وإن كان التجار الطليان، على أي حال، بإمكانهم الحصول داخل

(1) عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 177.
(2) عادل زيتون: المصدر السابق، ص 190.
(3) كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 189.
(4) مخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، مصدر سابق، ص 149.

الغرب نفسه على ما يعوض خسائرهم[1].

العملة الذهبية البيزنطية (النوميسما)حققت تفوقاً فيما بين القرن الخامس والسابع الميلاديين وفرضت نفسها على عالم المتوسط[2] قبل أن تؤكد العملة الذهبية العربية ـ الإسلامية في بداية العصر الوسيط نفسها، مستخدمةً الذهب السوداني. والمسلمون مع ذلك لم يتجاهلوا استعمال الفضة في نقدهم، في المقابل، سيفقد الغرب قدرته على سك العملة الذهبية في القرن الثامن، وهذا «يتفق مع خراب تجارة البحر المتوسط، ولأن الشرق سحب ذهب (غاليا)، دون مقابل، إذ لم يكن لديها بضاعة تبيعها له... لذا صارت العملة الفضية العملة الوحيدة التي تدخل في الحسابات حتى حكم القديس لويس»[3].

لكن، كما يلاحظ كاهن، أنه منذ القرن الحادي عشر أخذت العملة الفضية تندر في كل مكان إلى درجة الاختفاء التام في بعض المناطق حوالي القرن الحادي عشر.. على الأقل بالعالم الإسلامي والبيزنطي[4]. ويُرجع كاهن هذه الندرة إلى زيادة الطلب نتيجة تطور شروط الحياة والعلاقات الخارجية.

وتوافقاً مع الحروب الصليبية، يشير كاهن، لم تعد هناك دولة إسلامية تسك عملة ذهبية أو فضية، إذ كانوا يكتفون بالعملة النحاسية[5]. وربما يكمن السبب في انتقال كمية هائلة من الذهب الإسلامي إلى الديار المسيحية. كما يعتقد (رنسيمان)[6]، فالذهب كاد يختفي من مصر في نهاية العهد الفاطمي، ربما نتيجة النفقات العسكرية الباهظة. إلا أنه من المعلوم أن الذهب السوداني، منذ

---

(1) كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 171.

(2) عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية، مصدر سابق، ص 47.

(3) نور الدين حاطوم: تاريخ العصور الوسطى، مصدر سابق، ص 108. وراجع كاهن حيث يقول «كانت أوروبا بما فيها أسبانيا المسلمة قبل القرن العاشر لا تعرف من السك المحلي للنقود إلا الفضة»؛ الشرق والغرب.

(4) كلود كاهن: مصدر سابق، ص 178.

(5) عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية، مصدر سابق، ص 180.

(6) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص 619.

نهاية القرن الحادي عشر، كان يُجلب من السودان بكميات كبيرة إلى المغرب والأندلس، وبطريقة غير مباشرة إلى الغرب المسيحي بواسطة المرابطين ومن بعدهم الموحدون في القرن الثاني عشر[1].

ويخبرنا (كلود كاهن) أنه كان بمقدور نور الدين الزنكي صك العملة الذهبية والفضية[2] وإلى أن الذهب في آسيا الأيوبية حافظ على مكانة كبيرة، وربما تم تصحيح وضعه في مصر ذاتها في عهد الكامل[3].

وحينما بدأت الحروب الصليبية لم يكن يُضرب في أوروبا نقد ذهبي إلا في صقلية وأسبانيا حسب رأي (رنسيمان)[4]. وتوافقاً مع تعاظم دورها في المتوسط، بدأت المدن الإيطالية في القرن الثالث عشر بإصدار عملاتها الذهبية، جنوه أولها، وتلتها فلورنسا، ثم البندقية[5]، كما قامت المستعمرات الصليبية بدورها بالسك المتواصل للعملة الذهبية التي يسمونها (البيزنط) كما سموا العملة العربية: البيزنط العربي. وستكون تلك البيزنطيات متداولة في أسواق سوريا المسلمة[6].

وفي قلب الاختلاطات الواسعة التي فرضها الغزو (الصليبي) صارت النقود المتداولة في بلاد الشام «تتنوع وتتباين تبايناً شديداً لا يقل عن تنوع الأجناس والعناصر التي اجتمعت في تلك البلاد... وظلت النقود المعربة والنقود البيزنطية متداولة أيضاً في بلاد الشام طوال العهد الصليبي»[7].

---

(1) كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 180.
(2) كلود كاهن: المصدر السابق، ص 180.
(3) راجع ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، مصدر سابق، ص 618.
(4) المصدر السابق، ص 618.
(5) راجع عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية، مصدر سابق، ص 48.
(6) كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 180.
(7) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، الجزء الأول، مصدر سابق، ص 490.

4 ـ تبادل الصور والتأثيرات

أ ـ صورة العرب، تأثيرات العرب:

ظل الجهل والتحيز قروناً يحيطان معرفة بيزنطة والغرب بالإسلام وبالعالم الإسلامي. فالبيزنطيون الذين تصارعوا مع المسلمين لثلاثة قرون كان لديهم أدبهم الشعبي الذي يصور المسلمين يعبدون ثلاثين إلٰهاً أكبرهم (مهومد)، كما يذكر ذلك ريتشارد سوذرن مستغرباً فظاعة الأساطير المنتشرة عن الإسلام في الغرب خلال القرن التاسع إلى الثاني عشر[1]. وعلى الرغم من التعايش عن قرب مع المسلمين لعدة قرون في أسبانيا، مما يفترض معرفة أفضل، إلا أن واقع الحال يذهب باتجاه مغاير، إلى درجة أن كلود كاهن لم يجد سوى نص واحد عن الإسلام جدير بالذكر، هو نص (أولوج) الذي بدوره لا يعتمد على أي نص إسلامي، إنما على مخطوط مجهول يذكر فيه: «أن النبي محمداً شارك في اجتماعات.. بدا للأجلاف العرب بمظهر العالم. تمثلت له روح الظلال في شكل نسر فصيح اللسان ادعى أنه جبريل، بشّر بأشياء معقولة ظاهرياً: التخلي عن عبادة الأوثان.. ثم أشهر الحرب على الكفار... وألف حكاية عن بقرة حمراء، وضفدعة، وعنكبوت، وهدهد. وعن يوسف نفسه وزكريا، ومريم العذراء.. تكهن بانبعاثه بعد موته.. أكل الكلاب جسده، فأمر المسلمون بقتلها جميعاً»[2].

يصبح الأمر طبيعياً، في ظل هذا القلب المريع للوقائع، أن يكون الكتاب الأوائل لأناشيد المآثر على اقتناع بأن المسلمين يعبدون الثالوث: أبولون وماهون ونيرفاجان[3]. وخلاصة الأمر، فإن معلومات الغرب عن الإسلام حتى الحروب الصليبية لا تتعدى الإشاعات التهويلية. فلا غرابة بعد ذلك إن وجدنا شخصاً بمنزلة (جربير التوجنتي) لا يتمكن من معرفة أي شيء عن النبي محمد بواسطة ما هو مكتوب. فليس هناك سوى بعض التصورات عن الأنساب، وعن ثياب

---

(1) راجع رضوان السيد: الإسلام المعاصر نظرات في الحاضر والمستقبل دار العلوم العربية، بيروت 1986، ص 101.

(2) راجع كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 96.

(3) المصدر السابق، ص 96.

الرسول وزواجه وتصورات عن معارفه التي أمكنه اكتسابها ـ كما يدعون ـ من اتصاله باليهود والمسيحيين، أو أنه مصاب بالصرع، أو أن اليهود شجعوا دعوته بدافع الكراهية للمسيحية، أو أنه يتوجه بالعبادة للآلهة فينوس[1].

إذا كان هذا حال أوروبا التي هي على تماس مع العالم العربي ـ الإسلامي. وتمتلك قدراً لا بأس به من الحضارة، فيحق لنا أن نقول مع كاهن: «إن العالم الإسلامي، بصفة عامة، لم يكن له وجود واقعي في أذهان الناس في أوروبا الشمالية التي ستخرج منها الحرب الصليبية»[2].

لم تقع أي من الحواضر العربية الكبرى في قبضة الصليبيين الغزاة، وهم حتى عندما احتلوا مدينة طرابلس لم يترددوا في إتلاف مكتبتها العامرة بمئة ألف كتاب. ومع هذا، فالزمن وما يحمله من احتكاك مباشر وغير مباشر، في أتون المجابهات الدموية، وفي مسارات المبادلات التجارية، وما تفرضه قوة الحياة من اقتباس، والرغبة في معرفة العدو؛ كل هذه الأمور ستدفع باتجاه التعرف أكثر بعالم المسلمين، والاقتباس من المظاهر المختلفة للحضارة العربية ـ الإسلامية التي ستفرض نفسها كحضارة أرقى على رجال الغرب الذين سيميزون بين السلوك وأساليب الحياة الحضارية الإسلامية: العلوم، والتقنية، والذهنيات والتفلسف، العربي الإسلامي، وبين الإسلام كعقيدة ودين. سيأخذون ويقلدون، ويقتبسون من الأول، ويظلون على جهلهم وعدائهم للدين والعقيدة. فحينما بدأت الحروب الصليبية، التي يعتبرها (رنسيمان) بحق «من أهم مراحل التاريخ المؤثرة في المدنية الغربية»؛ إذ لم تكد أوروبا تخرج من مرحلة غارات المتبربرين الطويلة الأمد التي يطلق عليها العصور المظلمة، حتى كانت براعم ما نطلق عليه النهضة الأوروبية تأخذ في الظهور»[3].

في القرن الثاني عشر، سيقوم (بيير ألفونس) بالتعريف ببعض عناصر الإسلام

(1) كلود كاهن: المصدر السابق، ص 66 ـ 67.

(2) المصدر السابق، ص 70.

(3) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جزء ثالث، مصدر سابق، ص 782.

باللغة اللاتينية. وسيناصر بطرس المبجل ترجمة القرآن الكريم، وسيقوم جوفروا ألفيتري بإيطاليا بترجمة روايات مختصرة من السيرة النبوية[1].

ونما في هذه الحقبة الاهتمام بالفلسفة والعلم العربي ـ الإسلامي، وكان من الطبيعي ـ كما يقول كلود كاهن ـ أن تتعود أوروبا على معرفة الفكر العربي ـ الإسلامي وفقاً للسمات التي اتخذها، هذا الفكر، في الأندلس.

وعلى الرغم من أن المشاغل الفلسفية كانت في البدء من اهتمام المثقفين إلاّ أنه كان لا بد لتلك المؤلفات الفلسفية من أن تؤدي «في القرون اللاحقة إلى تأثيرات عميقة وعلى نطاق واسع داخل الأوساط التعليمية الجامعية»[2].

لقد أقبل الغرب على المدرسة العربية ـ الإسلامية سواء في الشام أو أسبانيا أو صقلية، وتراث الحضارة الأغريقية نقله العرب مطوراً إلى الغرب «وفي الطب والفلك والكيمياء والجغرافية والرياضيات والعمارة استقى الفرنج معارفهم من الكتب العربية التي هضموها وحاكوها وتجاوزوها»[3].

واتسعت معرفتهم بما في العالم العربي من جغرافية بشرية، وتاريخ، وعلوم مما خلق عندهم نهضة في دراسة القانون والطب والمنطق، وبدأوا بتكوين نقابات من المدرسين أسسوا عليها فكرة الجامعة. وهكذا نشأت الجامعات من جامعة باريس إلى أكسفورد وكمبردج بدءًا من القرن الثاني عشر الميلادي.

واتسعت خبرة الصليبيين وثروتهم، ووقفوا على فنون الشرق وصناعته وما فيها من رونق وفن ودقة. والراجح أن المستوى العام للمعيشة في الغرب ـ كما يشير إلى ذلك رنسيمان ـ لم يرتفع إلا بفضل رغبة العساكر والحجاج العائدين، «في أن يلجأوا في أوطانهم إلى محاكاة ما اشتهر به الشرق من مظاهر الحياة

(1) كلود كاهن: الشرق والغرب. مصدر سابق، ص 149.
(2) المصدر السابق، 148.
(3) أمين معلوف: الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص 260.

الوادعة»[1].

فالتعرف على الحياة العربية قاد إلى إحداث تغيرات نمط حياة الأسياد في الغرب. فالفارس الصليبي ـ بعد عودته ـ تستحوذ عليه عادات جديدة ـ كما يلاحظ ذلك زابوروف ـ فبدل اللباس الخشن المغزول باليد يرتدي الألبسة الشرقية الناعمة الجميلة، ويزين جدران بيته بالسجاجيد. وبدل المرآة البرونزية والفولاذية يستعمل مرآة الزجاج، وبدل المائدة القروية يستعمل المطبخ الشرقي بتوابله، مع سلة فاكهة من وراء البحار. واقتبسوا من الشرق العربي الطاحونة الهوائية، وزراعة الرز والبطيخ والمشمش، والليمون، والورد الدمشقي، وقصب السكر، وارتداء العمائم، والحمامات، والألبسة التحتانية والفوقانية، كما نقلوا سمات الأسلوب الشرقي في الهندسة المعمارية. وقد كان جامع الخليفة عمر في القدس الموديل والمثال الأول للهياكل ذات القباب[2]. واقتبسوا صناعة الورق والاشتغال بالجلود والنسيج وتقطير الكحول واستخراج السكر.

ولعل ما صاحب الحقبة الصليبية من حركة سكانية هائلة قد ساهم في تقدم المدينة الأوروبية، فعشرات الألوف من البشر تركت قرى ودساكر الغرب، ثم عادت بالمغانم والعادات والسلوكيات الجديدة إلى الغرب، مما خلق حراكاً سكانياً أثر على المدينة والريف. وساهم في تخفيف القيود الإقطاعية، ووسع دائرة الحرفة، وإطار التبادل التجاري، مما قاد إلى نهضة المدينة، وإلى نهضة الحريات البلدية[3].

كل تلك الآثار المجتمعة أطلقت شرارة التقدم في أوروبا، مما سيدفع لاحقاً بتلك المجتمعات تدريجياً، ولكن بإصرار نحو ما هم عليه حالياً.

ب ـ صورة الغرب، تأثيرات الغرب:

إن الإسلام بتسليمه بوجود أهل الكتاب ـ كما يقول الدكتور السيد ـ خطا

(1) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جزء ثالث مصدر سابق، ص 782.
(2) مخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، مصدر سابق، ص 331.
(3) هـ. أ. ل. فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، مصدر سابق، ص 222.

خطوة واسعة باتجاه اللقاء مع الآخر، وهو ما لم تفعله الكنيسة الرومانية حتى مؤتمر الفاتيكان الثاني عام 1963[1].

لقد تعايشت الدولة الإسلامية مع مواطنيها المسيحيين من واقع الاعتراف بهم كحملة كتاب توحيدي، تترتب لهم حقوق وعليهم واجبات. وتم التمييز، في الغالب، بين هؤلاء (المواطنين) وبين الفرنجة والبيزنطيين في وعي جمهرة المثقفين، وفي الوعي الشعبي.

وقد كانت صورة الغرب، الفرنجي والبيزنطي، لدى العرب ـ المسلمين، على الرغم من معلوماتهم الضئيلة، أكثر تفهماً وأقل جهالة مما يملكه الطرف الآخر عن العرب والمسلمين، من هنا يأتي قول كلود كاهن: كان جهل الشرقيين بالغرب، أقل خطورة. وظلت معلوماتهم قبل الحروب الصليبية ضئيلة، فباستثناء بعض التقاليد الأسطورية عن روما، وبعض المعطيات عن شبه الجزيرة الإيطالية، فإن المؤلفات الجغرافية والتاريخية عن الغرب.. لا تتضمن شيئاً آخر غير ما نقله القدماء (بطليموس) أو ما كان مصدره رحالة أسباني عربي.. وحتى في عنفوان الحروب الصليبية فإن الكتابين العربيين الوحيدين اللذين يمكن للمهتمين أن ينهلوا منهما معارف عن الغرب هما للإدريسي الذي عاش في ظل النورمانديين بصقلية القرن الثاني عشر، وابن صاعد الأندلسي. وإذا استثنينا ما أورده المسعودي في مختصره /950م/ فإن أول مؤلف مسلم اهتم بتاريخ الفرنجة هو رشيد الدين وذلك حوالي /1300م/[2].

أما الأمير العربي أسامة بن منقذ، الذي احتك مع الصليبيين واختبرهم عن قرب فيقول عنهم في كتابه (الاعتبار) إنهم مثال على جفاء الأخلاق إلا أن منهم قوماً تبلّدوا (تكيفوا) وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم[3]. ويعلق معلوف قائلاً: «ليس ما هو طبيعي أكثر من هذا الاستنكار الصادر عن الأمير

(1) رضوان السيد: الإسلام المعاصر.. مصدر سابق، ص 101.
(2) كلود كاهن: الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص 71.
(3) أمين معلوف: الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص 168.

العربي، لأن العدالة أمر خطير في نظر الذين كانوا في القرن الثاني عشر الميلادي. فالقُضاةُ أشخاص محترمون أسمى الاحترام. وهم مضطرون قبل إصدار حكمهم أن يتبعوا إجراءً محدداً ينص عليه القرآن: تحقيق، دفاع، بينات»[1]. وابن منقذ يختصر حكمه عليهم بالقول: «إنه ليس فيهم شيء، من النخوة والغيرة وفيهم شجاعة عظيمة» فهو لا يقدّر فيهم سوى صفاتهم القتالية، ويدين سلوكياتهم الأخرى.

أما بالنسبة للروايات الشعبية المروية، فيلاحظ كاهن: «إنّ الروايات التي كانت شائعةً بين الناس إبّان الحروب الصليبية كانت تستبدل اسم عدو بيزنطي باسم آخر فرنجي.. وستكشف حكايات ألف ليلة وليلة عن شعور معادٍ للفرنجة كما يستخدمون ملحمة بيبرس للتعبير عن كفاحهم ضد الفرنجة»[2]. وقد لعبت الحروب الصليبية أدواراً مختلفة، تبعاً لموقع كل من طرفي هذه الحرب. فإذا كانت قد أطلقت شرارة التقدم في المدنية الغربية، فهي قد ساهمت عند العرب ـ المسلمين ـ حيث كانت تخاض بين ظهرانيهم مترافقة مع الغزو المغولي، في إنهاك جسد الأمة وتدهورها. إذ صارت بمثابة الجرح النازف الذي سيعطل دفق الحياة في جسم الأمة.

وقد وضعت الحرب المسلمين أمام أسوأ الاحتمالات الممكنة فكان لا بد للأمة أن تنظم نفسها بكل طاقاتها لخدمة هدف واحد يتوقف عليه مصير الأمة: الجهاد. مما سيدفع إلى تقوية ميول العسكرية التي كانت قائمة سابقاً بالفعل، ومن تقوية دور الجند، وتجديد وتقوية الإقطاع العسكري. فتمت صياغة الدولة والاقتصاد بما يتناسب وفكرة أن الحرب حقيقة دائمة.

لذا، سيسير عماد الدين الزنكي، ومن بعده ابنه نور الدين أبعد في بناء جيوشهم على أساس النظام العسكري، وربط الإقطاع بالخدمة العسكرية، وسيربط صلاح الدين بين جميع خيوط العلاقات الإقطاعية في شخص السلطان

(1) المصدر السابق، ص 170.

(2) كلود كاهن: الشرق والغرب، مصدر سابق، ص 150.

الذي سيصبح بمثابة شيخ شيوخ الإقطاع[1]. وما كانت دولة المماليك غير استمرار للدولة الأيوبية في بنائها، ووظيفتها العسكرية وأساسها الاقتصادي، ودورها الجهادي ضد الغزو.

عندما يوضع وجود الأمة ومصيرها قيد التساؤل التاريخي، تصبح الكلمة العليا حينئذ عند الأمة هي قضية الإحتفاظ بالوجود المادي للأمة، وللحفاظ على الهوية الثقافية لها، تلك الهوية الثقافية ستصبح كحبل السرة الوحيد الذي يربطهم بالوجود، وكعلامة وحيدة على البقاء. من هنا سيتمركز اهتمام الأمة، ليس على الإبداع والخلق، بل على كل ما يذكر بهذه الهوية الثقافية ويكون شاهداً عليها، وسيتركز التأليف العربي على التفسير والتأويل، والشرح على المتون، والتأليف الموسوعي عن تاريخ الأمة للحفاظ على ذاكرتها حية، وسيكون كتاب /الكامل في التاريخ/ لابن الأثير وأمثاله من الموسوعات الشاهد الباهر على ذلك. عندها تصبح مسألة معرفة الآخر مسألة ثانوية نافلة، يدعم ذلك شعور بالخصومة أكيد ضد هذا الآخر، مضاف إليه الشعور بالتفوق الحضاري، وهو شعور يعكس الحقيقة الواقعة حينذاك. فالشرقيون كما يقول كاهن: «تمسكوا بفكرة أن أوروبا بلد «بربري» لا يمكن أن يُقتبس منه أي شيء، وهي فكرة صحيحة.. ومن ثم لا نرى ما إذا كان المسلمون في العصور الوسطى قد استطاعوا، أن يأخذوا من أوروبا شيئاً باستثناء الجانب العسكري، والذي يبدو أن رد الفعل كان انطواءً دفاعياً على الذات»[2].

وعندما نعيد النظر في الحصيلة النهائية للتأثيرات المتبادلة للحروب الصليبية، فإننا نجد الغرب الخاسر عسكرياً، يصبح، بعد عملية الاقتباس من الحضارة العربية، هو الرابح على الأصعدة الأخرى، فلقد كان «العالم العربي في مهد الحروب الصليبية من أسبانيا إلى العراق لا يزال فكرياً ومادياً خازن أرقى حضارة على وجه الأرض. ولسوف ينتقل مركز العالم بعدها بعزم وتصميم إلى الغرب»[3].

---

(1) د. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص 196.

(2) كلود كاهن: الشرق والغرب.. مصدر سابق، ص 65.

(3) أمين معلوف: الحروب الصليبية، مصدر سابق، ص 323.